السطور الأولى بحيث يقتصر دور السطور التالية على البرهنة على الامكانية المجردة الحاضرة في البطل أبدا . معنى ذلك وببساطة أن « أمين » يحمل في قدره سمة الانسان الكامل ، والتجربة في حياة هذا « البطل » لا تشير إلا إلى كماله . لننظر عن كثب إلى مصير هذا الريفي الذي وصل المدينة معدما :

فعلى المستوى الموضوعي يجاوز « البطل » حدوده : «ما أسرع ما وجدتني جزءاً من طبقة اجتماعية جديدة . ص : ٤٦ » / « بعد أن قضيت سنوات المراهقة أعالج الكلمات ، اكتب كل يوم شيئا مهما هزل شأنه ، كتبت كتابين ، فحدثت المعجزة . وإذا أنا بين عشية وضحاها موضوع الكلام والنقاش . ص : ٤١ » .

أما على المستوى الذاتي فـان هذا القروي يحتضن الجمال بأسره : « وتتفجر الشمس أحيانا بألوان مترفة من بين الغيوم بعد همي من الغيث ، فتنصب خلال النافذة المزدوجة على الكنبة حيث استلقت سمية فتانة في شبه عريها ، ونهداها سافران ، والموسيقى تنطلق من الفراموفون كسيل من خيالات العشاق . ص : ٢٨ » .

إن أيدولوجيا « الانا » لا تحكم مضمون « صراخ في ليل طويل » فحسب بل تحكم أيضا حركة الرواية ونهايتها ، فالحركة تتم بين شخصيات صماء مبهمة تحاور « البطل » أو تتيح له محاورة ذاته ، وهذه الشخصيات مبهمة بالضرورة لأن دورها الوظيفي هو إنارة شخصية البطل وإيضاح أبعاده الفكرية والنفسية لكن هذه الأيدولوجيا « الأناوية » . « لا تأخذ كل مداها وأثره في الفعل الروائي إلا في النهاية . ففي نهاية الرواية تعود « سمية » إلى أمين بعد غياب طويل وبلا سبب ، فيطردها أمين رغم شقائه في انتظارها ، وفي النهاية أيضا تدمر « ركزان » قصرها وتأتي إلى أمين الذي يرفض ربط مصيره بمصيرها . إن شكل النهاية هنا لم يتحدد بالتطور الموضوعي للفعل الروائي بل تحدد بأيدولوجيا إرادوية مهووسة بتأكيد الأنا وانتصار الذات ، وعلى هذا فان شكل النهاية لا يشير إلى طبقة انقرضت أو إلى حب بعث من جديد بل يشير فقط إلى انتصار « البطل » وتجاوزه للوسط الذي يتحرك فيه .

يبقى هناك بعض الأسئلة ، أما كان في مكنة الكاتب رغم أيدولوجيته « الأناوية » أن يحدد ملامح الزمان والمكان ؟. إذ أن غياب هذا التحديد جعل الرواية تفقد خصوصيتها وهويتها . شيء آخر : أما كان جديرا بالكاتب أن يشير إلى الحركة الاجتماعية في فلسطين في زمان الفعل الروائي ؟ . فكما أعلم ، والكل يعلم ، أن فلسطين عرفت شيئا اسمه الاحتلال البريطاني ، وعرفت أيضا ومنذ بداية هذا القرن شيئا اسمه المشروع الصهيوني ، وعرفت بالتالي سلسلة من النضالات البطولية لشعبنا . إن الأيدولوجيا القائمة على الأنا ، على ما يبدو ، كثيفة وقائمة ، وفي كثافتها ومناخها تعجز عن رؤية التاريخ والحركة الاجتماعية والنضال الوطني !!

صيادون في شارع ضيق ــ الفلسطيني المندمج/الرؤية الاستشراقية

يصل جبرا ابراهيم جبرا في روايته الثانية « صيادون في شارع ضيق » الى مرحلة جديدة ، ينتقل من اللاتحديد إلى التحديد : المكان « بغداد » ، والزمان زمان النكبة